قصة قصيرة
قبضةٌ
من نار
إيناس مهنا
Reham

قبضةٌ من نار

التصـــــنيـــــــف : قصة قصيرة

المـــــــــؤلف : ايناس مهنا

تصميم الغـــلاف : ريهام محمد

الإخراج الفني :

موقع أسرار الروايات للنشر الإلكتروني

ملخص

حكاية حبٍ قد تكون تقليديةٌ جداً حينما تتآلف روحين ، وتتعالى نبضات قلبين معلنةً عن ولادة حبٍ جديد، لكن المختلف في هذه القصة، أن نبضات القلوب ستعزف ألحانها على أصوات المدافع والرصاص، لن يشعر بالحب أو الحرب إلا من مر بهما، وأبطال هذه الحكاية قد مروا بالحالتين، فحين تتعالى الزغاريد والهتافات.. سيكون العريسُ شهيداً .

و البدلةُ البيضاء ستكونُ حُلماً من نوعٍ آخر كلياً ... في الحرب نحلمُ بأن ينتهي هذا الكابوس، نحلمُ بأن يتوفر الأمان وحسب، فالحبُ في الحربِ مرعبٌ جداً صدقوني، قصةٌ حقيقةٌ جداً على الرغم من أني لم أعرف أصحابها إلا أن هذا السيناريو يتكرر كل يومٍ على أرضنا ...سوريا "

جـــوري.. يـــا لـــهُ مـــن اســـمٍ دافـــئ، كتلـــك الـــوردة الجوريـــة المخمليـــة التـــي بزغـــتِ لـــي مـــن خلفهـــا ذاتَ يـــوم ، كنـــتُ أتأمـــلُ تلـــكَ الأزهـــار كـــلَ يـــومٍ صـــباحاً حينمـــا تـــداعبُ نســـيمات الفجـــر وجهـــي ،أختـــلسُ لحظـــاتٍ مـــن الزمـــان أمـــام حديقـــة هـــذا المنـــزل المهجـــور بحراســـة البـــواب الـــذي يقـــوم بالســـقيا... كـــان يتضـــايق مـــن وجـــودي بـــادئ الأمـــر ثـــم مـــا لبـــث أن اعتـــاد علـــى تطفلـــي علـــى أزهـــار هـــذا الـــدار..بل وكـــأنني والبـــواب وريـــحُ الصـــباح وزهراتُـــكِ الندية عقـــدنا اتفاقيـــة صـــداقةٍ أبديـــة، فمـــا إن أتقـــدم ناحيـــة الســـور الأزرق حتـــى يتنحـــنح الهـــواء مُطلقـــاً ريحـــه الندية المحملـــة بعبـــق الـــورد المحشـــورِ فـــي ذلـــك الأصـــيص.. يشـــرقُ وجـــه العـــم خالـــد فأحييـــه بابتســـامةٍ ودودة، ورغـــم تعلقـــي الشـــديد بتلـــك الزهـــور لـــم أســـتطع حتـــى أن أقطـــف إحـــداها خشـــية أن تمـــوت، وكيـــفَ لـــي أن أقتُـــلَ أرواحـــاً تـــبهج صـــباحي وتحييني بعد كدر الليل الطويل،

كـان منزلنـا يقبـع فـي نهايـة الشـارع، ومنـزل الزهـور يتخـذُ زاويـة البناء الطويل وكأنهُ بزهوره لجنة استقبالٍ لأهالي الحي ...

جـوري هـي تلـك الزهـور التـي يكثـر انتشـارها فـي مدينـة الياسمين...دمشـق، ولكـن وكمـا أن لكـلِ شـيْ أوانه...تـذبلُ روحـي بـالتزامن مـع ذبـول الزهـور فـي غيـر موسـمها لكنـي أعـيشُ علـى أمـل اللقـاء بهـا مجـدداً حينمـا تحيـا لتحيـا روحـي برفقتهـا من جديد

****

ذلـك اليـوم لـن أنسـاه مـا حييـت، كنـتُ قـد صـرتُ بالسـنة الثالثـة مـن الجامعـة حينمـا كانـت تلـك الزهـور تتـألقُ علـى غيـرِ عادتهـا صـباحاً بـل وكأنهـا تـرقصُ طربـاً وتتمايـلُ علـى أنغـام النسـيمات العليلـة وكأنهـا موسـيقى تتمايـل علـى أثرهـا سـيقان الزهـور وأوراقهـا زاهيـة الخضـرة، اقتربـتُ أكثـر مـن الزهـرة حينهـا لأشـتم عبقهـا الـذي كـان ممتزجـاً برائحـةٍ غريبـةٍ جـداً هـذا اليـوم، وكأنهـا خليـطٌ مـن ألـفِ نـوعٍ وصـنفٍ مـن العطـور

... أغمضتُ عيناي وعندما حررتهما مجدداً لأرى جمال الكون المتجسد في زهرة...رأيتك.

بل رأيتُ عينان زاهيتان بلون الرماد، زاهيتانِ لدرجةٍ انعكاس صورتي فيهما ورأيتُ نفسي داخل عينيكِ، صورتي متشابكةٌ مع خيوط قزحيتيك اللؤلؤيتين، انفرجت عيناي لأستوعب الصورة وتراجعتُ قليلاً عن الزهور ليتسع مكان الرؤيا، ويتسع الكون مجدداً ويفسحُ عن معجزةٍ جديدةٍ فيه، معجزةٍ تتجلى بشفاهٍ وردية مرسومةٍ بريشة أعظم فنان...سبحان ما أبدعكِ، سبحان من أبدع خيوطُ الحرير السوداء المنسدلة على كتفيكِ كشلالٍ من نبيذٍ حلو تحت وشاحٍ أبيض وكأن كلُ خُصلةٍ من خصلات شعرك الناعم المتناثرة من تحت وشاحك تتراقص مع الزهور هذا اليوم، العجائب الدنيوية سبعةُ كانوا...وزادوا اليوم واحدة !

-جوري !!

استدرتِ أنتِ مباشرةً للخلف وتطلعتُ أنا خلفكِ ناحية هذه السيدة التي تقدمت بابتسامةٍ مقتضبة : تفضل يا بني !

تنحنحتُ معتذراً:

- آسفٌ لإزعاجك، لم أعرف أن هذا البيت مسكون ، كنتُ معتاداً على رؤية الزهور كل يوم"

تبسمت السيدة بلطفٍ مجيبة: انتقلنا البارحةَ ..

سألتها بعدما استبينت لهجتها المختلفة: أأنتم من حِمص؟

أومأت السيدة وقد انحشرت دمعةً بمقلتيها جعلتني أرتعد لا إردياً وأجابت :

-الأوضاعُ سيئةٌ بحمص، لم يعد لنا مكانٌ هناك فآثرنا الانتقال إلى دمشق"

حمص...الحرب...التشرد..القتل...التدمير...التهجير، يااااه نسيتُ لدقيقتين أن الدمار يغلفُ سماء المدينة، وكأنني

تلقيتُ صفعةً عنيفة لأستفيق من هذا الحلم على الكابوسِ الذي يجثم على كياننا منذُ سنواتٍ لم نعد نحصيها ...

حضرت نسوة المنازل المجاورة للترحابِ والمساعدة فانسلختُ عن السور مبتعداً على وعدٍ خفيٍ باللقاء...

****

علمتُ ذلك اليوم أن اسمكِ جوري وكنتِ كالزهرة من بينهن تتسابقن بالجمالِ والفِتنة لولا تلك السحنةُ الذابلة المكللة بالسواد ونحنُ يا جوريتي ذابلين كذلك..

لم تتجاوزي الثمانية عشر عاماً على ما يبدو..ولم يتجاوز عُمري أنا الدقيقتين، منذ بزغت عيناكِ لتشرق روحي وأبدأ أنا باحتساب الزمان،

ومن حينها صارت اللهفةُ ممزوجةً بليلِ كل يوم لانتظار هذا الصباح الاستثنائي للقائك، صارت أصواتُ المدافع تتعاظمُ حدتها بالليل، فصرتُ فجأةً أخافُ وحدتي بعدما كنتُ قد اعتدتُ عليها سابقاً، والدي قد توفاه الله منذُ عامٍ ونيف ولم أعرف والدتي قط لأنها توفت مذ كنتُ في سنواتي

الأولى أما شقيقتي الكبرى التي رعتني بشكلٍ فعلي قد تزوجت وطوت صفحة مكوثها بسوريا لتهاجر مع زوجها وتصارع الحياةَ بشكلٍ آخر لا يقلُ قسوةً عن العيش بداخل الوطن ...و رغم ذلك كان أمل لقائك صباحاً يكللني ببعض السكينة، تتلاشى الأصواتُ من حولي لدقيقتين حينما أمرُ بجانب زهرتي، تتحولُ ريحُ البارودِ والرصاص لعطرٍ جوريٍ فاخر.... كنتُ سابقاً أتناسى الحرب باستنشاق عذوبة الورد والآن أتناساها بأنفاسٍ باتت تشتم تلك الزهور وأنامل تتلمسها وتسقيها وعينان تراقباني بخجل! .

وتجرأتُ ذاتَ يومٍ لأهمس من خلف السور بعدما توقفت كعادتي :

- سبحان الله جميلةٌ جداً هذا اليوم"

نظرتِ لي بحدةٍ حينها وأنتِ تسقين الزهور لكن وجهي أشرق بابتسامةٍ بريئة لأستطرد: أقصدُ الزهور طبعاً " أشحتِ بوجهكِ عني ووليتِ مبتعدة ولم أقدر أنا أن أبتعد وكأن هذا السور سيخلدُ قصةَ حبٍ تُضافُ لتلك القصص

التـــي خلـــدها التاريخ..هكـــذا ظننـــت حينهـــا ولـــم أعـــرف أن قصتنا تلك كحالتنا ستكونُ على هامش التاريخ ! .

وتوالـــت الأيـــام و صـــباحاتي الاســـتثنائية المتمثلـــة بالـــدقيقتين !! أكنـــتِ تنتظرينني كـــل يـــوم أم هـــذا مـــا تهيـــئ لـــي.. وربمـــا لـــم تكـــوني كـــذلك..بل تنظـــرين لبنـــات جيلـــك وهـــن يـــذهبن للمدرســـة فـــي حـــين أنـــكِ قـــد اضـــطررتِ لتوقيـــف دراســـتكِ بســـبب ســـوء الأوضـــاع وإغـــلاق المـــدارس فـــي معظـــم منـــاطق وبلـــدات حمـــص والآن أنـــتِ فـــي دمشـــق لكـــن العـــامُ الدراســـي علـــى وشـــك الانتهـــاء..وكم كنـــتُ أتمنـــى فـــي تلـــك الأيـــام أن أختلـــق حـــديثاً معـــك، أيـــاً كـــان لكننـــي لـــم أتجـــرأ، عنـــدما عـــدتُ ذات مســـاء لاحظتـــكِ تجلســـين علـــى أضـــواء النيـــون الأبـــيض أمـــام بـــاب الـــدار تقـــرئين كتابـــاً مـــا وتســـمعكِ والـــدتك ..كنـــتِ وكأنـــكِ تـــروين إحـــدى الحكايـــات لأزهـــارك، وأيقنـــتُ أنهـــا تســـمعكِ وتتمايـــلُ علـــى أنغـــامِ همســـاتك الدافئـــة فتلـــوح بأوراقهـــا طربـــاً وتنشـــرُ ريحهـــا فرحـــاً، كـــان وجهـــكِ مختلفـــاً عـــن الســـابق وكـــأن الـــروح قـــد ارتـــدت إليـــكِ وكـــم كنـــتُ أتمنـــى أن أنضـــم لمجلســـكم البســـيط تلـــك الليلـــة، لكنـــك وكأنـــك داخـــل أســـوار قلعتـــكِ

تحتمين خلفها فلا أراك إلا من ورائها ...وكم تمنيتُ أن أزيل هذا السور الذي يصنع حاجزاً بينا، لمعت ببالي للحظاتٍ تلك البوابة السحرية التي سأصل فيها إليكِ بل و كأنني عرفتُ كيفَ سأزيل هذا الحاجز، عدتُ إلى المنزل وانتقيت كتاباً من مكتبتي المتواضعة و أنا أتخيلُ كلماته بصوتكِ الشجي ...ودون أن أتحدث صباحاً عبرتُ خطوتين مجتازاً بوابة السور وسلمتكِ الكتاب بابتسامةٍ ودودة فتسائلتِ بارتباك : لما!!؟

- ستقرئينه وسأعطيكِ المزيد ، أدركتُ أنكِ تحبين القراءة "

برقت عيناكِ الذابلتين بلمسة أملٍ رقراقةٍ وتناولتهِ مني بامتنان مجيبة : كنتُ أحلمُ بارتيادِ جامعة الحقوق لكن حُلمي تلاشى..فصرتُ أقضي وقتي بالقراءة..ربما هرباً من الواقع"

أجبتكِ حينها بثقةٍ عمياء : ستستكملين دراستكِ في السنة القادمة " وكأنني من يملكُ زمام الأمور...وبغباءٍ تغافلتُ عن اختيار القدر..تمنيتُ أن تطول تلك اللحظة وأنتِ تنظرين

لـي، هـل تسـتمدين منـي الشـجاعة أو الأمـل ! أشـحتِ بوجهـكِ عني لتغرب شمس روحي وقلتِ تهمسين:

- والـدي كـان يخبرنـي دائمـاً ...أننـا والأجيـال القادمـة مـن سيبني الوطن .

- مـا دُمنـا علـى هـذه الأرض ، سنواصـلُ مسـيرنا وسـنبني أمتنـا من جديد"

وعلمـتُ ذلـك اليـوم أن والـدك استشـهد قبـل انتقـالكم بأسـابيع قليلـة ، ذبلـت ورقتـه وتسـاقطت لتـروي أرضَ حمـص الأبيـة ومتأكـدٌ أن مكـان استشـهاده وتحـت الأطـلال المـدمرة انبثقـت برعمـةً ككـلِ شـهيدٍ علـى أرضـنا..لا يوجـد بقصـتنا مـا أحكيـه وأرويـه لأحـد ، أخشـى أن أدنـس بحـديثي رونـق تلـك الحالـة الطـاهرة التـي مررنـا بهـا، نحـنُ نُحـب، نعشـق تفاصـيل هـذا الحـب العـذري ولا يوجـد مـا نحكيـه لأن وطننـا كـان يحكـي كـل شـيء عنـا، يـروي قصـص أبطالـه وممثليـه وحتـى أوغـاده، لـن يشـعر بالحـب أو الحـرب إلا مـن

مـــر بهمـــا..ونحنُ يـــا جـــوريتي مررنـــا بكلتـــا الحـــالتين بـــل ومررنـــا بالحصار..

أيامنـــا صـــارت تتلـــون كـــألوان الطيـــف الـــدامي,اصـــطبغت الأجـــواء بـــألوان الغبـــار والتـــراب والنـــار والـــدم، يتعـــالى صُـــراخ النـــاس مـــن حولنـــا وتتعـــالى تكبيـــرات الرجـــال غضـــباً وقهـــراً، وفجـــأةً صـــار الحـــي وكأنـــه جـــزءٌ مـــن جهـــنم، ازدادت الاشـــتباكات تســـابقت الـــدماء لتعبـــر أروقـــة الحـــي لتصـــبغها، جميـــعُ زهـــورك الجوريـــة الملونـــة صـــارت فجـــأةً ذات لـــونٍ أحمـــر... أوراق الأزهـــار والأشـــجار ســـالت دمائهـــا وديانـــاً، تمسكتِ بسور منزلك وقلتِ تهمسين:

- أنا خائفةٌ يا إبراهيم.

أنـــا كـــذلك خـــائفٌ يـــاجوري، خـــائفٌ مـــن ألا ألقـــاكِ مجـــدداً وخـــائفٌ مـــن ذبولـــك كأزهـــارك التـــي بـــدأت تتشـــيع جثامينهـــا وتتساقط كشهداء سوريا...

انتهـــى الصـــيفُ فـــي دمشـــق، انتهـــى الربيـــع والخريـــف، ولـــم يتبقـــى ســـوى شـــتاء تشـــرين..تعرت الإنســـانية وتجســـدت بأبشـــع

صورها من حولنا وهاجرت الطيور هرباً لمكانٍ أكثر دفئاً وأماناً، ليتني أملكُ مكاناً آمناً أحملكِ إليه وأطير، ليتني أملكُ حبةَ قمحٍ أغرسها داخل فمك فأسد جوعه أو رشفةَ ماءٍ أسدُ بها ظمأك،أو ليتني امتلكُ جناحين مكسوين ريشاً أدفئكِ تحتهما يا صغيرتي.. لكن جناحاي مكسوران .

وبعد أن ذبلت أزهارك بقيتِ أنتِ منغرسةً بذلك التراب ترويني بدموعك علها تزهر مجدداً لكن هيهات، جميعنا قد ذبلنا بتلك الأيام، تساقطت الأجساد من حولنا جوعاً وبرداً وقتلاً ، ارتفعتُ الأرواحُ للسماء فتوهجت الشمسُ أكثر علها تبعث لنا الدفئ في ظل انقطاع الكهرباء وتسابق القمر ونجومه لإضاءة الشوارع المعتمة ، انتهى الشتاء وأعلنت روحُ والدتك الاستسلام للموت برصاصةٍ طائشة اخترقت صدرها حينما ذهبت لإحضار رغيفٍ خبزٍ لسد جوعكما ، والدتك التي ظنت بأنها هربت بكِ لمكانٍ أكثر أماناً !..لكن الأمان كلمةٌ قد نسينا معانيها وتمزقت حروف رايتها بسيل الرصاص المجنون..

لفظت المساكن بعض قاطنيها أو بمن تبقى منهم في موجة نزوحٍ جماعي، شِخنا فجأةً وليس لنا سوى الله والأمل بالتمسك بتراب أرضنا، أرضنا التي فجأةً غزاها الغرباء والمسلحين، صار الأخوة يمسكون السلاح وكلٌ منهم منتمٍ لطائفةٍ ووجهة وعليك أن تختار غصباً الجهة التي ستكون منتمياً لها ... انسلخنا عن جذورنا سلخاً واستوطن الخوفُ أعماق أرواحنا و تخابطنا فكيف سنبني الوطن ونحنُ متفرقين، خائفين !

وفي ظلِ هذه الأحداث الدامية أحتضنتكِ فقط ناسياً كل ما حولي لتهدئة ثورة جنونك، صُراخكِ حين موت والدتكِ التي غامرت لجلب رغيفِ خبزٍ ما يزالُ يصمُ أذني..دمعك الذي تدفق على صدري كان يخترقُ القلب فيحرقه ويدميه ولا قدرة لي لإخماد نارك المتوقدة فلن أزيدكِ إلا وقوداً وبارودا يا جوريتي..

وعلى الرغم من أن لا أمل لنا الآن في تأسيسِ عائلةٍ هانئة في ظل جنون الحرب والحصار قلتُ بثقة: حضري متاعك

سنتزوجُ غداً" كنتُ أخشى عليكِ البقاء بمفردك، أخشى عليكِ وحشة الليل الطويل التي مررتُ سابقاً بها ..ولم تمانعي بل هززتِ رأسكِ بطاعةٍ عمياء فكنتِ كما أنا..تحتاجين من يحميكِ ويبدد خوفك .

وفي تلك الليلة أسستُ عائلتنا بأحلامي... غرستُ زهرةً بشعركِ بذلك الحلم وألبستكِ بذلةً بيضاء و تزوجتك في منامي، بقينا نرقصُ لساعات النهار ومن حولنا تتساقط زهور الياسمين وحبات الأرز، النسوة تطلق الزغاريد وأنا وأنتِ نرقصُ تحت أضواء القمر... نرقصُ ونرقص حتى أدميت أقدمانا فانغرست فيها أشواك زهورك الباكية وكأنها تشيعُ روحينا .

شهقتُ معتدلاً على صوتِ تفجيرٍ عنيفٍ تناثرت شظاياه لتقتحم الدار فتفجر زجاج المنزل واهتز ليرتج جسدي بعنفٍ حينها... وهبت الريحُ المحملة بوهجِ أصوات أهل الحي...الله أكبر، الله أكبر، امتزجت أصواتهم المرتجفة الحانقة

بصوت آذان المساجد القريبة ...حتى صوتُ المؤذن صدعَ مُرتجفاً حينها، مخنوقاً وكأن البارود قد انحشر بحنجرته.

و ركضت أنا كما العادة لأساعد أهل الحي لإخراج الأجساد من تحت الأنقاض... هرولتُ وأنا أقول ساخطاً : ألن ينتهي هذا الكابوس اللعين، ألن ينتهي !!

ولكنني لم أظن بيومٍ ما أن أخرج أنا روحي من تحت الأنقاض، ركضت حيث يركضُ الرجال، ركضتُ حافياً حتى انغرست الشظايا بقدمي العاريتين

وأصواتُ التكبيرات من حولي لم تهدأ ، شعرتُ بأنني فجأةً صرتُ بقلبِ أحد الأفلام الساذجة و كأنني أمثل فيماً ساخراً من الحياة ذاتها، وكنت بهذه اللحظة أمثلُ فيلمي الخاص..لكن هذا الفيلم لم يكن رخيصاً بل كان غالياً جداً ، غالياً ومُرعباً وقبيحاً، لم يكن منزل الزهور قائماً، لم تكوني أنتي منغرسةً خلف أصيص الزهور تنتظرينني لآخذك ..بل كنتِ أنتِ وما تبقى من ذكرى زهورك تحت الأنقاض.

اختلط حلمي منذ لحظاتٍ بكابوس الواقع..فركعتُ على قدمي وصرتُ أنبش الأنقاض بيدي وأنا أصيح ملئ حنجرتي هيا اظهري من تحت الأنقاض، أطلي لتشرق الحياة مجدداً،وأعدك أن نتزوج حينها، أعدكِ بأنني سأخرجكِ من هذا الحي التعيس ومن هذه الأجواء المرعبة، ستدرسين الحقوق، سنتزوج، سنؤسس عائلةً هانئة، ثلاثُ فتياتٍ سننجب ... سنربي الزهور من جديد، وسنغرسها زهرةً زهرة، ياه ما أصعبَ قهر الرجال وما أقسى مفاجئات القدر

صرتُ أدعو الله بنجاتكِ وألعن الحياة... اختلطت المفاهيم من حولي، ولم أعد أعي ما أقول بل كانت دموعي تتساقط وتمتزج بالأنقاض والسور الأزرق الذي بدأت قضبانه الحديدية تظهر..ثم ظهرتِ أنتِ أخيراً.. ظهرت دمائكِ الطاهرة النقية الممتزجة بشعركِ الرمادي الملوث بالتراب والدماء لكن عيناكِ لم تشرق ، تعاونت مع الرجال لسحبكِ من تحت الأنقاض وجررتكِ بعدها لناصية الشارع وقد تعالى لهاثي وبكائي .. هل اشتقتِ لوالدتكِ خلال يومٍ واحدٍ لتلحقي بها بهذا السرعة يا جوريتي!!

-لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله ..ولنا الله.

من حولي باتوا يرددونها بعدما تجمهروا وأنا أحتضنكِ عليّ أدفئ ذلك الجسد البارد، رفعتكِ ناحية صدري وانغرستُ بعنقك أشتم رائحة البارود والدم الجوري الذي ما يزال ينبض من الوريد المقطوع..ينبض فتتدفق الدماء لترويني وتروي الأرض من تحتنا.

لمزيد من أعمال المؤلف يرجي التواصل علي :

Wattpad	facebook

لمزيد من الروايات يرجى زيارة موقعنا :

site	facebook